دراسة لديوان كمال نشأت

« انشودة الطريق »

بقلم الدكتور أحمد هيكل

لقد تذكرت شاعر اسبانيا العظيم « جارثيا لوركا » وانا اقرأ ديوان شاعرنا النابه كمال نشأت ، بل ان احساسي « بلوركا » وانا اعيش مع نشأت في « انشودة الطريق » لم يكن تذكرا عابرا ، وانما كان الحاحا ملازما ، حملني حملا على ان أفكر فيما قد يكون بين الشاعرين من اوجه شبه .. وبعد استرجاع لما اعرف من شعر « لوركا » ولما بين يدي من شعر نشأت خرجت بنتيجة ارجو ان تكون على حظ من الصواب . تلك النتيجة هي ان أكثر شعر نشأت بعد تطوره في « انشودة الطريق » يشبه في بعض ملامحه شعر «لوركا»، فهذا وذاك شعر لا يعتمد على المذاهب الادبية، بقدرما يعتمد على الاصالة الشعرية . وهذا وذاك شعر لا يجري وراء اتجاه غربي او شرقي ، بقدر ما يتجه الى الصدق الفني . ثم هو بعد الاصاله والصدق يتسم بالطابع المحلي الحبيب ، ولا يجانب الاتجاه العالمي الصحيح .

فنحن نجد في اكثر شعر نشأت مانجده في شعر « لوركا » من بعد عن التحليق مع الرومانسية الحالمة ،التي تهرب وتنطوي ، وتحزن وتنوح ، ثم لاتخلف اخر الامر الا موجات احلام تتحطم على صخرة الواقع ، بل لا تعطي من الزاد الفني الا فقاقيع ان سرت العين فهي لاتروي الظمأ .

كذلك نجد في اكثر شعر نشأت مانجده في شعر«لوركا» من مجانبة للواقعية الهابطة ، التي لا تلتصق الا بالجانب التائه من الحياة ، ولا تعنى الا بالمنفر المقزز من الاحياء، ثم لانقدم بعد ذلك قيما جمالية ما ، بدعوى ان ذلك من الحلى الزائفة ، او من الترف اللاهي !

وعلى حين نجد اكثر شعر نشأت يجانب الرومانسية الحالمة والواقعية الهابطة ، نجده يتناول حياة الشاعر وحياة شعبه في اسلوب فني رائع ، لايجمح فيشيد قصورا على السحب ، ولا يهبط فيمزج النور بالطين ، وانما يصوغ التجارب الحية في اطار رائع فيه محلية اللون وعالمية الاتجاه !!

فكمال نشأت في انشودة الطريق « كلوركا » يتحدث عن نفسه وشعبه ، في حياته الوادعة والمكافحة ، في أمله وفي المه ، في بيته وفي حقله ، في قريته وفي مدينته، في هدهدته للاطفال ومصارعته للطغاة ..

وكمال نشأت في انشودة الطريق « كلوركا » يؤثر الاسلوب الفني الذي يعتمد على ينابيع غنية من الجمال المحلي ، تلك الينابيع التي يتفجر بها الوطن الحبيب ، والتي تحتاج الى الفنان لواعي ليقف عندها ويحسن النهل منها ..

ففي شعر نشأت كما في شعر « لوركا » من اساطير الوطن اساطير ، ومن تعابيره تعابير ، ومن ملامحه ملامح، ومن اريجه اريج . كل ذلك مع محاوله مخلصة للاخذ بالاسلوب الشعري العالمي ، الذي يناى عن الخطابية والتعابير المباشره ، ويعتمد على الايحاء والتعبير بالصور المتآزرة ، كما يستغل الاسطوره ويجنح الى القص ، ويحتم ان يكون العمل الشعري بناء حيا ذا وحدة عضويه متفاعله متكاملة نامية ..

والحق ان هذا الاسلوب المتسم بمحلية اللون وعالمية الاتجاه ، هو غاية مايصبو اليه شعرنا الحديث ، بل اسمى ماتتطلع اليه كل فنوننا . وذلك لان هذا الاسلوب ، هو الذي سيجعل لشعرنا وسائر فنوننا طابعا مميزا اولا ، ثم هو الذي سندخل منه الى المجال العالمي ثانيا .

وهكذا يقارب نشأت « لوركا » في الاصالة والصدق ومحليه اللون ومحاولة السير في الاتجاه الفني العالمي .. وهكذا ايضا يعطى اكثر شعر نشأت كما يعطى شعر « لوركا » صورة محببه للشاعر وشعبه . فكما نرى في شعر « لوركا » صورة حية محببة للاندلس ، نجد كذلك في « انشودة الطريق » صورة حية محببة لبلدنا الطيب . تلك الصورة التي تجمع لوانها من غبرة الارض وزرقة السماء ، من صفرة القمح وخضره البرسيم ، من بياض القطن وحمرة التمر ، وتتالف خطوطها من معارك التل الكبير وفلسطين والقنال ،كما تتالف قسماتها من البيت الآمن والحقل الوادع والمصنع الهادر ، ويشيع في جنباتها الحب والرضى والايمان ، ويعطر ارجاءها عطر البرتقال وعبير الليمون ودم الشهداء ..

وهذه ابيات من قصيدة « يابلادي » ربما صلحت شاهدا على هذه السمة في شعر نشأت . يقول الشاعر :

يا حقول القمح والقطن المديده
يا مهاد الحسن يا ارض الكفاح
والبطولات المجيده
والفكاهات الهنيه
تربك المرع والبدر المطل
والسواقي والنخيل
وابتسامات الصبايا
والاكف المتعبات
واناشيد الحصاد

والنجيمات العـرايـا
والمياه الغافيـات
وشميم « التمر حنه »
والحكايات المسنه
في المصاطب
والنسيمات اللطـاف
والنفوس المطمئنه
تشكر الله على العيش الكفاف
وهي في اخصب جنه
كلها ماجت على صدري هتاف

فاذا تركنا هذه المقارنة السريعة بين « لوركا » ونشأت، وفرغنا الى « انشودة الطريق » لنسجل ابرز سماته ،وجدنا ان هذا الديوان يسجل عده ظواهر ، بعضها يتعلق بالشاعر وبعضها يتصل بالشعر .. اما بالنسبة للشاعر ، فالديوان يسجل اولا وصول مؤلفه الى نقطة التحول من مرحلـة التردد بين المحافظة والرومانسية ، الى مرحلة يمكـن ان نسميها « بالواقعية الجمالية » ونعني بها هذا الاتجاه الذي يجمع بين واقعيه المضمون وجمالية التعبير ، مع رعايـه مالا بد منه من محلية اللون وعالمية الاسلوب .

والديوان يسجل ثانيا ان مؤلفه يتحرك ببراعة في اربع دوائر ، يوشك ان يزيل بينها الحدود ، ويجعلها بفنيته دائره واحده . وهذه الدوائر هي : الاسرة والقرية والوطـن والانسانية .. فهذه الدوائر تبدا احيانا في « انشـودة الطريق » من اصغرها وهي الاسرة ، ثم تتسع رويدا رويدا حتى تنتهي الى كبراها وهي الانسانية . وهكذا تبدو الاسرة والقرية والوطن والعالم كشيء واحد عند الشاعر المجيد الواعي ، تماما كما « تنداح دائرة في لجة الماء يلقى فيـه بالحجر » فيما يقول ابن الرومي في بيته المشهور ..

وربما كانت قصيدة نشأت « نامت نهاد » من اوضـح الامثلة على تلك السمة في شعره ، فهو يقول في بعـض اجزائها :

نامت نهـاد
فجلست قرب سريرهـا
ارعى الحنـين
اتنسم الامال من انفاسهـا
وارى السنين
تمضي فامعن في الخيال
واشيم كونا في غد فيه الانـام
يمشون فوق دروبه
ويد السـلام
والحب تهدى السائرين
فهتفت : مرحى يانهاد
درب الغد المرجو جف به القتاد

اما بالنسبة للشعر ، فالديوان يسجل ان قالبا عروضيا بذاته ليس امرا اساسيا في اعطاء العمل الشعري قيمتـه كشعر . فمن الممكن ان يكون العمل الشعري الناجـح مصوغا في القالب المحافظ ، ومن الممكن ان يكون مصوغـا في القالب الحر ، مادام وراء هذا القالب او ذاك شاعـر اصيل صادق يحسن التعبير .

فكمال نشأت في « انشودة الطريق » قد صاغ بعـض قصائده في القالب المتحرر ، كما صاغ البعض الاخر في القالب المحافظ ، وهو في الحالين شاعر ممتاز ، يجيـد الصياغة في القالبين جميعا .. ومن هنا يعتبر ديوانـه وثيقة حية يعتز بها من ينافحون عن الشعر الحـر ، كمـا يتمسك بها من يدافعون عن الشعر المقيد . على ان هـذه الوثيقة تؤكد بطلان دعوى من يعيبون على الشعر ان يكـون في قوالب الخليل بن احمد ، كما تؤكد بطلان دعوى مـن يعترضون على الشعر ان يجيء فيما يجد من اوزان .

وقد مضت بعض النماذج الناجحة من شعر نشأت في القالب الحر ، وهذا نموذج من شعره في القالب المحافظ، يقول في قصيدته « أفراح الوحدة »

من دمشق الزهراء من قلب مصـر
نبض اللحن يعربيا وطـــارا

راح فوق الربـوع يرتجل البشرى
بفجـر بـدا وليـل تـوارى

فاذا العرب أمة تعبـر التاريـخ
صفا مـوحـدا قهـــارا

تحية عاطرة للشاعر كمال نشأت ، وتهنئة صادقة بديوانه الجديد ، الذي اضاف الى اغانينا واناشيدنا انشـودة حلوة .. « انشودة الطريق »

احمد هيكل
استاذ الادب العربي المساعد بكلية دار العلوم

صدر حديثـا

أبيات ريفية

بقلم عبد الباسط الصوفي

قصائد رائعة للفقيد الذي

كان نسيج وحده في عالم الشعر

الثمن ٣٠٠ ف.ل ـ ٣٧٥ ف.س **دار الآداب**